بيان التوحيد

الذي بعث الله به الرسل جميعا
وبعث به خاتمهم محمدا عليه السلام

تأليف

سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين . . أما بعد :

فهذه ثلاث كلمات في التوحيد من كتابي **(مجموع فتاوى ومقالات متنوعة) :**

الأولى : حقيقة التوحيد والشرك .

والثانية : توحيد المرسلين ، وما يضاده من الكفر والشرك .

والثالثة : توضيح معنى الشرك بالله .

رأيت جمعها في كتاب واحد بعنوان : **(بيان التوحيد الذي بعث الله به الرسل جميعا . . وبعث به خاتمهم محمدا ﷺ) ،** وذلك مساهمة مني في بيان التوحيد ، والتحذير من الشرك الذي انتشر في كثير من بلاد العالم الإسلامي ، من دعاء الأولياء والصالحين والتوسل بهم بعد موتهم ، والبناء على القبور والنذر لها والطواف حولها ، وغير ذلك من الأمور القادحة في التوحيد الذي بعث الله به الرسل جميعا ، الموضح في قول الله ﷻ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾[3] .

راجيا من الله ﷻ أن ينفع بنا عباده ، وأن يصلح أحوال المسلين جميعا ، ويمنحهم الفقه في الدين ، إنه سميع قريب . وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه .

---

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

حقيقة التوحيد والشرك

الحمد لله رب العالمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله وخيرته من خلقه ، وأمينه على وحيه ، نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي العربي المكي ثم المدني ، وعلى آله وأصحابه ، ومن سلك سبيله ، واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن الله ﷻ خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له ، وأرسل الرسل لبيان هذه الحكمة والدعوة إليها ، وبيان تفصيلها وبيان ما يضادها ، هكذا جاءت الكتب السماوية ، وأرسلت الرسل البشرية من عند الله ﷻ للجن والإنس ، وجعل الله سبحانه هذه الدار طريقا للآخرة ، ومعبرا لها ، فمن عمرها بطاعة الله وتوحيده ، واتباع رسله عليهم الصلاة والسلام ، انتقل من دار العمل : وهي الدنيا ، إلى دار الجزاء : وهي الآخرة ، وصار إلى دار النعيم والحبرة والسرور ، دار الكرامة والسعادة ، دار لا يفنى نعيمها ، ولا يموت أهلها ، ولا تبلى ثيابهم ، ولا يخلق شبابهم ، بل في نعيم دائم ، وصحة دائمة ، وشباب مستمر ، وحياة طيبة سعيدة ، ونعيم لا ينفد ، يُنادى فيهم من عند الله ﷻ ﴿ يا أهل الجنة ، إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ﴾ [1] هذه حالهم ولهم فيها ما يشتهون ولهم فيها ما يدعون ، ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢ ﴾ [2] ولهم فيها لقاء مع الله ﷻ كما يشاء ، ورؤية وجهه الكريم جل وعلا .

أما من خالف الرسل في هذه الدار ، وتابع الهوى والشيطان ، فإنه ينتقل من هذه الدار إلى دار الجزاء ، دار الهوان والخسران ، والعذاب والآلام والجحيم ، التي أهلها في عذاب وشقاء

---

(١) مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٣٧) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٢٤٦) ، أحمد (٣/٩٥) ، الدارمي الرقاق (٢٨٢٤) .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٢ .

دائم ، ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾[1] كما قال ﷻ ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾[2] وقال فيها أيضا : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾[3] وقال فيها جل وعلا : ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾[4] والمقصود : أن هذه الدار هي دار العمل ، وهي دار التقرب إلى الله ﷻ بما يرضيه ، وهي دار الجهاد للنفوس ، وهي دار المحاسبة ، ودار التفقه والتبصر في الدين ، والتعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالحق والصبر عليه ، والعلم والعمل ، والعبادة والمجاهدة ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[5] فخلق الله الجن والإنس وهما : الثقلان لعبادته ﷻ لم يخلقهم سبحانه لحاجة به إليهم ، فإنه سبحانه هو الغني بذاته عن كل ما سواه ، كما قال سبحانه : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾[6] ولم يخلقهم ليتكثر بهم من قلة ، أو يعتز بهم من ذلة ، ولكنه خلقهم سبحانه لحكمة عظيمة ، وهي : أن يعبدوه ويعظموه ، ويخشوه ، ويثنوا عليه سبحانه بما هو أهله ، ويعلموا أسماءه وصفاته ، ويثنوا عليه بذلك ، وليتوجهوا إليه بما يحب من الأعمال والأقوال ، ويشكروه على إنعامه ، ويصبروا على ما ابتلاهم به ، وليجاهدوا في سبيله ، وليتفكروا في عظمته ، وما يستحق

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٣٦ .
(٢) سورة طه الآية ، ٧٤ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ٢٩ .
(٤) سورة محمد ، الآية ١٥ .
(٥) سورة الذاريات ، الآيات ٥٦ - ٥٨ .
(٦) سورة فاطر الآيات ١٥ - ١٧ .

عليهم من العمل ، كما قال ﷻ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [3] فأنت : يا عبد الله ، مخلوق في هذه الدار ، لا لتبقى فيها ، ولا لتخلد فيها ، ولكنك خلقت فيها لتنقل منها بعد العمل ، وقد تنقل منها قبل العمل ، وأنت صغير لم تبلغ ، ولم يجب عليك العمل لحكمة بالغة .

فالمقصود : أنها دار ممزوجة بالشر والخير ، ممزوجة بالأخلاط من الصلحاء وغيرهم ، ممزوجة بالأكدار والأفراح ، والنافع والضار ، وفيها الطيب والخبيث ، والمرض والصحة ، والغنى والفقر ، والكافر والمؤمن ، والعاصي والمستقيم ، وفيها أنواع من المخلوقات خلقت لمصلحة الثقلين ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [4] .

والمقصود من هذه الخليقة كما تقدم : أن يعظم الله ، وأن يطاع في هذه الدار ، وأن يعظم أمره ونهيه ، وأن يعبد وحده سبحانه وتعالى بطاعة أوامره ، وترك نواهيه ، وقصده سبحانه في طلب الحاجات ، وعند الملمات ، ورفع الشكاوى إليه ، وطلب الغوث منه ، والاستعانة به في كل شيء ، وفي كل أمر من أمور الدنيا والآخرة . فالمقصود من خلقك وإيجادك : يا عبد الله ، هو توحيده سبحانه ، وتعظيم أمره ونهيه ، وأن تقصده وحده في حاجاتك ، وتستعين به على أمر دينك ودنياك ، وتتبع ما جاء به رسله ، وتنقاد لذلك

(١) سورة الطلاق ، الآية ١٢ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٨٠ .
(٣) سورة آل عمران ، الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٩ .

طائعا مختارا ، محبا لما أمر به ، كارها لما نهى عنه ، ترجو رحمة ربك ، وتخشى عقابه سبحانه وتعالى .

والرسل أرسلوا إلى العباد لُيعرفوهم هذا الحق ، ويعلموهم ما يجب عليهم ، وما يحرم عليهم ، حتى لا يقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، بل قد جاءتم الرسل مبشرين ومنذرين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [3] .

فهم قد أرسلوا ليوجهوا الثقلين لما قد أرسلوا به ، ويرشدوهم إلى أسباب النجاة ولينذروهم أسباب الهلاك ، وليقيموا عليهم الحجة ، ويقطعوا المعذرة ، والله سبحانه يحب أن يمدح ، ولهذا أثنى على نفسه بما هو أهله ، وهو غيور على محارمه ، ولهذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

فعليك : أن تحمده سبحانه ، وتثني عليه بما هو أهله ، فله الحمد في الأولى والآخرة . وعليك أن تثني عليه بأسمائه وصفاته ، وأن تشكره على إنعامه ، وأن تصبر على ما أصابك ، مع أخذك بالأسباب التي شرعها الله وأباحها لك . وعليك أن تحترم محارمه ، وأن تبتعد عنها ، وأن تقف عند حدوده ؛ طاعة له سبحانه ، ولما جاءت به الرسل .

وعليك : أن تتفقه في دينك ، وأن تتعلم ما خلقت له ، وأن تصبر على ذلك حتى تؤدي الواجب على علم وعلى بصيرة ، قال ﷺ ﴿ من يرد الله به خيرًا يفقهه في

---

(١) سورة النحل ، الآية ٣٦ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٦٥ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥ .

الدين ﴾ [١] وقال ﷺ ﴿ من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له به طريقا إلى الجنة ﴾ [٢] خرجهما مسلم في صحيحه .

وأعظم الأوامر وأهمها : توحيده سبحانه ، وترك الإشراك به ﷻ وهذا هو أهم الأمور ، وهو أصل دين الإسلام ، وهو دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم ، وهو توحيد الله وإفراده بالعبادة ، دون كل من سواه .

هذا هو أصل الدين ، وهو دين الرسل جميعا من أولهم نوح ، إلى خاتمهم محمد عليهم الصلاة والسلام ، لا يقبل الله من أحد دينا سواه ، وهو الإسلام .

وسمي : إسلاما ؛ لما فيه من الاستسلام لله ، والذل له ، والعبودية له ، والانقياد لطاعته : وهو توحيده والإخلاص له . مستسلما له جل وعلا ، وقد أسلمت وجهك لله ، وأخلصت عملك لله ، ووجهت قلبك إلى الله في سرك وعلانيتك ، وفي خوفك وفي رجائك ، وفي قولك وفي عملك ، وفي كل شأنك .

تعلم أنه سبحانه هو الإله الحق ، والمستحق لأن يعبد ويطاع ويعظم ، لا إله غيره ولا رب سواه .

وإنما تختلف الشرائع ، كما قال سبحانه : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [٣] أما دين الله فهو واحد ، وهو دين الإسلام ، وهو : إخلاص العبادة لله وحده ، وإفراده بالعبادة : من دعاء ، وخوف ، ورجاء ، وتوكل ، ورغبة ، ورهبة ، وصلاة ، وصوم وغير ذلك ، كما قال سبحانه وبحمده : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [٤] .

---

(١) البخاري العلم (٧١) ، مسلم الإمارة (١٠٣٧) ، ابن ماجه المقدمة (٢٢١) ، أحمد (٩٣/٤) ، مالك الجامع (١٦٦٧) ، الدارمي المقدمة (٢٢٦) .
(٢) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٩) ، الترمذي العلم (٢٦٤٦) ، ابن ماجه المقدمة (٢٢٥) ، أحمد (٢٥٢/٢) ، الدارمي المقدمة (٣٤٤) .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .
(٤) سورة الإسراء ، الآية ٢٣ .

أي : أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، وقال سبحانه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [(١)] . أخبر عباده بذا ليقولوه ، وليعترفوا به . فعلمهم كيف يثنون عليه ، فقال عز من قائل : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ [(٢)] علمهم هذا الثناء العظيم ، ثم قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [(٣)] وجههم إلى هذا سبحانه وتعالى ، فيثنوا عليه بما هو أهله من الحمد والاعتراف بأنه رب العالمين ، والمحسن إليهم ، ومربيهم بالنعم ، وأنه الرحمن ، وأنه الرحيم ، وأنه مالك يوم الدين ، وهذا كله حق لربنا عز وجل .

ثم قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [(٤)] إياك نعبد وحدك ، وإياك نستعين وحدك ، لا رب ولا معين سواك ، فجميع ما يقع من العباد هو من الله ، وهو الذي سخَرهم ، وهو الذي هيأهم لذلك ، وأعانم على ذلك ، وأعطاهم القوة على ذلك ولهذا يقول جل وعلا : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [(٥)] فهو سبحانه المنعم ، وهو المستعان والمعبود بالحق جل وعلا .

فأنت : يا عبد الله ، إذا جاءتك نعمة على يد صغير أو كبير ، أو مملوك أو ملك ، أو غيره ، فكله من نعم الله جل وعلا ، وهو الذي ساق ذلك ويسره سبحانه ، خلق من جاء با وساقها على يديه ، وحرك قلبه ليأتيك با ، وأعطاه القوة والقلب والعقل ، وجعل في قلبه ما جعل حتى أوصلها إليك .

فكل النعم من الله جل وعلا مهما كانت الوسائل ، وهو المعبود بالحق ، وهو الخالق للعباد ، وهو مربيهم بالنعم ، وهو الحاكم بينهم في الدنيا والآخرة ، وهو الموصوف

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .
(٢) سورة الفاتحة ، الآيات ٢ - ٤ .
(٣) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .
(٤) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .
(٥) سورة النحل ، الآية ٥٣ .

بصفات الكمال الم ه عن صفات النقص والعيب ، واحد في ربوبيته ، واحد في ألوهيته ، واحد في أسمائه وصفاته ، جل وعلا ، وهو سبحانه له التوحيد من جميع الوجوه ، له الوحدانية في خلقه العباد ، وتدبيره لهم ، ورزقه لهم ، وتصريفه لشئونم ، لا يشاركه في ذلك أحد سبحانه وتعالى ، يدبر الأمر جل وعلا ، كما قال جل وعلا : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [1] وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ [2] . وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ ﴾ الآية [3] فهو المستحق للعبادة ؛ لكمال إنعامه ، وكمال إحسانه ، ولكونه الخلاق والرزاق ، ولكونه مصرف الأمور ومدبرها ، ولكونه الكامل في ذاته وصفاته وأسمائه . فلهذا استحق العبادة على جميع العباد واستحق الخضوع عليهم ، والعبادة : هي الخضوع والذل ، وسمي الدين عبادة لأن العبد يؤديه بخضوع لله ، وذل بين يديه ، ولهذا قيل للإسلام : عبادة .

تقول العرب : طريق مَعبد ، يعني : مذلل ، قد وطأته الأقدام ، حتى صار لها أثر بين يُعرف ، ويقال : بعير معبد : أي قد شد ورحل عليه ، حتى صار له أثر فصار معبدا .

والعبد : هو الذليل المنقاد لله ، المعظم لحرماته ، وكلما كان العبد أكمل معرفة بالله وأكمل إيمانا به ، صار أكمل عباد ة .

ولهذا كان الرسل أكمل الناس عبادة ؛ لأنم أكملهم معرفة وعلما بالله ، وتعظيما له من غيرهم ، صلوات الله وسلامه عليهم .

ولهذا وصف الله نبيه محمدًا ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته ، فقال سبحانه :

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٦٢ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٥٨ .

(٣) سورة يونس ، الآيتان ٣ ، ٤ .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ (٣) إلى غير ذلك .

فالعبودية مقام عظيم وشريف ، ثم زادهم الله فضلا من عنده سبحانه بالرسالة التي أرسلهم بها ، فاجتمع لهم فضلان : فضل الرسالة ، وفضل العبودية الخاصة . فأكمل الناس في عبادتهم لله ، وتقواهم له : هم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم يليهم الصديقون الذين كمل تصديقهم لله ولرسله ، واستقاموا على أمره ، وصاروا خير الناس بعد الأنبياء ، وعلى رأسهم : أبو بكر الصديق رضي الله عنه فهو رأس الصديقين ، وأكملهم صديقية ، بفضله وتقواه ، وسبقه إلى الخيرات ، وقيامه بأمر الله خير قيام ، وكونه قرين رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار ، ومساعده بكل ما استطاع من قوة رضي الله عنه وأرضاه .

فالمقصود : أن مقام العبودية ، ومقام الرسالة هما أشرف المقامات ، فإذا ذهبت الرسالة بفضلها ، بقي مقام الصديقية بالعبادة .

فأكمل الناس إيمانا وصلاحا وتقوى وهدى : هم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ لكمال علمهم بالله ، وعبادتهم له ، وذلهم لعظمته جل وعلا ، ثم يليهم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم الصالحون ، كما قال جل وعلا : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (٤) .

ولا بد مع توحيد الله من تصديق رسله ، ولهذا لما بعث الله نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام ، صار يدعو الناس أولا إلى توحيد الله ، وإلى الإيمان بأنه رسوله عليه الصلاة

(١) سورة الإسراء ، الآية ١ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ١ .
(٣) سورة الجن ، الآية ١٩ .
(٤) سورة النساء ، الآية ٦٩ .

والسلام .

فلا بد من أمرين : توحيد الله ، والإخلاص ، ولا بد مع ذلك من تصديق الرسل عليهم الصلاة والسلام .

فمن وحد الله ، ولم يصدق الرسل فهو كافر ، ومن صدقهم ولم يوحد الله فهو كافر ، فلا بد من الأمرين : توحيد الله ، وتصديق رسله عليهم الصلاة والسلام .

والاختلاف في هذا المقام هو في الشرائع ، وأما توحيد الله والإخلاص له ، وترك الإشراك به ، وتصديق رسله ، فهو أمر لا اختلاف فيه بين الأنبياء ، بل لا إسلام ولا دين ولا هدى ولا نجاة إلا بتوحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة ، والإيمان بما جاء به رسله عليهم الصلاة والسلام ، جملة وتفصيلا .

فمن وحد الله جل وعلا ، ولم يصدق نوحًا في زمانه ، أو إبراهيم في زمانه ، أو هودا ، أو صالحًا ، أو إسماعيل ، أو إسحاق ، أو يعقوب ، أو من بعدهم إلى نبينا محمد ﷺ فهو كافر بالله ﷻ حتى يصدق جميع الرسل ، مع توحيده لله عز وجل .

فالإسلام في زمن آدم : هو توحيد الله مع اتباع شريعة آدم عليه الصلاة والسلام ، والإسلام في زمن نوح : هو توحيد الله مع اتباع شريعة نوح عليه الصلاة والسلام ، والإسلام في زمن هود : هو توحيد الله مع اتباع شريعة هود عليه الصلاة والسلام ، والإسلام في زمن صالح : هو توحيد الله مع اتباع شريعة صالح عليه الصلاة والسلام ، حتى جاء نبينا محمد - ﷺ فكان الإسلام في زمانه : هو توحيد الله مع الإيمان بما جاء به محمد ﷺ واتباع شريعته .

فاليهود والنصارى لما لم يصدقوا محمدًا عليه الصلاة والسلام ، صاروا بذلك كفارا ضلالا ، وإن فرضنا أن بعضهم وحّد الله ، فإنهم ضالون كفار بإجماع المسلمين لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ فلو قال شخص : إني أعبد الله وحده ، وأصدق محمدًا في كل شيء إلا في تحريم الزنا ، بأن جعله مباحا ، فإنه يكون بهذا كافرا حلال الدم والمال بإجماع المسلمين ، وهكذا لو قال : إنه يوحد الله ويعبده وحده دون كل من سواه ، ويصدق

الرسل جميعا ، وعلى رأسهم محمد ﷺ إلا في تحريم اللواط : وهو إتيان الذكور ، صار كافرا حلال الدم والمال بإجماع المسلمين ، بعد إقامة الحجة عليه إذا كان مثله يجهل ذلك ، ولم ينفعه توحيده ولا إيمانه لأنه كذب الرسول ، وكذب الله في بعض الشيء .

وهكذا لو وحَد الله ، وصدَق الرسل ، ولكن استهزأ بالرسول في شيء ، أو استنقصه في شيء أو بعض الرسل ، صار كافرا بذلك ، كما قال جل وعلا : ﴿ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ [1] . ثم إن ضد هذا التوحيد هو الشرك بالله ﷻ فإن كل شيء له ضد ، والضد يبين بالضد ، قال بعض الشعراء : فإن كل شيء له ضد ، والضد يبين بالضد ، قال بعض الشعراء :

والضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتميز الأشياء

فالشرك بالله ﷻ هو ضد التوحيد الذي بعث الله به الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فالمشرك مشرك لأنه أشرك مع الله غيره فيما يتعلق بالعبادة لله وحده ، أو فيما يتعلق بملكه وتدبيره العباد ، أو بعدم تصديقه فيما أخبر أو فيما شرع ، فصار بذلك مشركا بالله ، وفيما وقع منه من الشرك .

وتوحيد الله ﷻ الذي هو معنى لا إله إلا الله ، يعني : أنه لا معبود بحق إلا الله ، فهي تنفي العبادة عن غير الله بالحق ، وتثبتها لله وحده ، كما قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [3] وقال سبحانه : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨ ﴾ [4] وقال سبحانه : ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ

(١) سورة التوبة ، الآيتان ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) سورة لقمان ، الآية ٣٠ .
(٣) سورة محمد ، الآية ١٩ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٨ .

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (1) فتوحيد الله : هو إفراده بالعبادة عن إيمان ، وعن صدق ، وعن عمل ، لا مجرد كلام ، ومع اعتقاده بأن عبادة غيره باطلة ، وأن عباد غيره مشركون ، ومع البراءة منهم ، كما قال ﷻ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (2) وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (3) . فتبرأ من عباد غير الله ، ومما يعبدون .

فالمقصود : أنه لا بد من توحيد الله ، بإفراده بالعبادة ، والبراءة من عبادة غيره ، وعابدي غيره ، ولا بد من اعتقاد وبطلان الشرك ، وأن الواجب على جميع العباد من جن وإنس : أن يخصوا الله بالعبادة ، ويؤدوا حق هذا التوحيد بتحكيم شريعة الله ، فإن الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، ومن توحيده : الإيمان والتصديق بذلك ، فهو الحاكم في الدنيا بشريعته ، وفي الآخرة بنفسه سبحانه وتعالى ، كما قال جل وعلا : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (4) وقال تعالى : ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ (5) وقال سبحانه : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ (6) .

وصرف بعض العبادة للأولياء ، أو الأنبياء ، أو الشمس والقمر ، أو الجن ، أو الملائكة ، أو الأصنام ، أو الأشجار أو غير ذلك ، كل هذا ناقض لتوحيد الله ، ومبطل له .

---

(1) سورة النحل ، الآية 51 .
(2) سورة الممتحنة ، الآية 4 .
(3) سورة الزخرف ، الآيتان 26 ، 27 .
(4) سورة الأنعام ، الآية 57 .
(5) سورة غافر ، الآية 12 .
(6) سورة الشورى ، الآية 10 .

وإذا علم أن الله سبحانه بعث نبيه محمدًا ﷺ والأنبياء قبله إلى أمم يعبدون غير الله ، منهم من يعبد الأنبياء والصالحين ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ، ومنهم من يعبد الأصنام المنحوتة ، ومنهم من يعبد الكواكب إلى غير ذلك ، فقد دعوهم كلهم إلى توحيد الله ، والإيمان به سبحانه ، وأن يقولوا : لا إله إلا الله ، وأن يبرءوا مما يخالفها ، وأن يبرءوا من عابدي غير الله ، ومن معبوداتم ، وأن من صرف بعض العبادة لغيره فما وحدَه ، كما قال الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [(١)] .

وبذا تعلم أن ما يصنع حول القبور المعبودة من دون الله ، مثل قبر البدوي ، والحسين بمصر وأشباه ذلك ، وما يقع من بعض الجهال من الحجاج وغيرهم ، عند قبر النبي ﷺ من طلب المدد والنصر على الأعداء ، والاستغاثة به والشكوى إليه ونحو ذلك - أن هذه عبادة لغير الله ﷻ وأن هذا شرك الجاهلية الأولى ، وهكذا ما قد يقع من بعض الصوفية من اعتمادهم أن بعض الأولياء يتصرف في الكون ، ويدبر هذا العالم - والعياذ بالله - شرك أكبر في الربوبية .

وهكذا ما يقع من اعتقاد بعض الناس ، أن بعض المخلوقات له صلة بالرب ﷻ وأنه يستغني بذلك من متابعة الرسول محمد ﷺ أو انه يعلم الغيب ، أو أنه يتصرف في الكائنات ، وما أشبه ذلك ، فإنه كفر بالله أكبر ، وشرك ظاهر ، يخرج صاحبه من الملة الإسلامية إن كان ينتسب إليها .

فلا توحيد ، ولا إسلام ، ولا إيمان ، ولا نجاة إلا بإفراد الله بالعبادة ، والإيمان بأنه مالك الملك ، ومدبر الأمور ، وأنه كامل في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله ، لا شريك له ، ولا شبيه له ، ولا يقاس بخلقه ﷻ فله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهو مدبر الملك جل وعلا ، لا شريك له ، ولا معقب لحكمه .

هذا هو توحيد الله ، وهذا هو إفراده بالعبادة ، وهذا هو دين الرسل كلهم ، وهذا

---

(١) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

معنى قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [(١)] يعني : إياك نوحد ونطيع ، ونرجو ونخاف ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : نعبدك وحدك ونرجوك ونخافك .

وإياك نستعين على طاعتك ، وفي جميع أمورنا . فالعبادة : هي توحيد الله ﷻ والإخلاص له في طاعة أوامره ، وترك نواهيه سبحانه وتعالى ، مع الإيمان الكامل بأنه مستحق للعبادة ، وأنه رب العالمين المدبر للعبادة ، والمالك لكل شيء ، والخالق لكل شيء ، وأنه الكامل في ذاته ، وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ولا نقص فيه ، ولا عيب فيه ، ولا مشارك له في شيء من ذلك ، سبحانه وتعالى ، بل له الكمال المطلق في كل شيء جل وعلا .

ومن هذا نعلم : أنه لا بد من تصديق الرسل جميعا فيما جاءوا به ، وعلى رأسهم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه متى أخلص العبد العبادة لله وحده ، وصدّق رسله عليهم الصلاة والسلام ، ولا سيما محمد ﷺ وانقاد لشرعه واستقام عليه ، إلا في واحد أو من أكثر من نواقض الإسلام فإنه تبطل عبادته ، ولا ينفعه ما معه من أعمال الإسلام .

فلو أنه صدَق محمدًا في كل شيء ، وانقاد لشريعته في كل شيء ، لكن قال مع ذلك : مسيلمة رسول مع محمد - أعني : مسيلمة الكذاب الذي خرج في اليمامة وقاتله الصحابة في عهد الصديق رضي الله عنه - بطلت هذه العقيدة ، وبطلت أعماله ، ولم ينفعه صيام النهار ، ولا قيام الليل ، ولا غير ذلك من عمله ؛ لأنه أتى بناقض من نواقض الإسلام ، وهو تصديقه لمسيلمة الكذاب لأن ذلك يتضمن تكذيب الله سبحانه في قوله ﷻ ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [(٢)] كما تضمن تكذيب الرسول ﷺ في قوله ﷺ في الأحاديث المتواترة عنه عليه الصلاة والسلام ، بأنه خاتم الأنبياء ولا نبي بعده .

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٤٠ .

وهكذا من صام النهار ، وقام الليل ، وتعبد وأفرد الله بالعبادة ، واتبع الرسول ﷺ ثم بعد ذلك في أي وقت من الأوقات صرف بعض العبادة لغير الله ، كأن يجعل بعض العبادة للنبي ، أو للولي الفلاني ، أو للصنم الفلاني ، أو للشمس ، أو للقمر ، أو للكوكب الفلاني ، أو نحو ذلك ، يدعوه ويطلب منه النصر ، ويستمد العون منه ، بطلت أعماله التي سبقت كلها ، حتى يعود إلى التوبة إلى الله ﷻ كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [1] وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [2] وهكذا لو آمن بالله في كل شيء ، وصدّق الله في كل شيء ، إلا في الزنا ، فقال : الزنا مباح ، أو اللواط مباح ، أو الخمر مباحة ، صار بذا كافرا ، ولو فعل كل شيء آخر من دين الله ، فاستحلاله لما حرم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة ، صار باستحلاله هذا كافرا بالله ، مرتدا عن الإسلام ، ولم تنفعه أعماله ولا توحيده لله عند جميع المسلمين .

وهكذا لو قال : إن نوحًا ، أو هودًا ، أو صالحًا ، أو إبراهيم ، أو إسماعيل أو غيرهم ليس بنبي ، صار كافرا بالله ، وأعماله كلها باطلة ؛ لكونه بذلك قد كذب الله سبحانه فيما أخبر به عنهم .

وهكذا لو حرم ما أحله الله ، مع التوحيد والإخلاص والإيمان بالرسل ، فقال مثلا : أنا ما أحل الإبل أو البقر أو الغنم أو غيرها مما أحله الله حلا مجمعا عليه ، وقال : إنا حرام يكون بذا كافرا مرتدا عن الإسلام بعد إقامة الحجة عليه ، إذا كان مثله قد يجهل ذلك وصادف جنس من أحل ما حرم الله .

أو قال : ما أحل الحنطة أو الشعير ، بل هما حرام ، وما أشبه ذلك ، صار كافرا ، أو قال : إنه يستبيح البنت أو الأخت ، صار بذا كافرا بالله ، مرتدا عن الإسلام ، ولو صلى وصام وفعل باقي الطاعات لأن واحدة من هذه الخصال تبطل دينه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ

(١) سورة الأنعام ، الآية ٨٨ .
(٢) سورة الزمر ، الآية ٦٥ .

عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [1] .

ونحن في زمان غلب فيه الجهل ، وقل فيه العلم ، وأقبل الناس إلا من شاء الله ، على علوم أخرى وعلى مسائل أخرى ، تتعلق بالدنيا ، فقل علمهم بالله ، بدينه لأنهم شغلوا بما يصدهم عن ذلك ، وصارت أغلب الدروس في أشياء تتعلق بالدنيا ، أما التفقه في دين الله ، والتدبر لشريعته سبحانه ، وتوحيده ، فقد أعرض عنه الأكثرون ، وأصبح من يشتغل به اليوم هو أقل القليل .

فينبغي لك : يا عبد الله ، الانتباه لهذا الأمر ، والإقبال على كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ دراسة وتدبرا وتعقلا ، حتى تعرف توحيد الله والإيمان به ، وحتى تعرف ما هو الشرك بالله ﷻ وحتى تكون بصيرا بدينك ، وحتى تعرف ما هو سبب دخول الجنة والنجاة من النار مع العناية بحضور حلقات العلم والمذاكرة مع أهل العلم والدين ، حتى تستفيد وتفيد ، وحتى تكون على بينة وعلى بصيرة في أمرك .

والشرك شركان : أكبر ، وأصغر .

فالشرك الأكبر : ينافي توحيد الله ، وينافي الإسلام ، ويحبط الأعمال ، والمشركون في النار ، وكل عمل أو قول دلت الأدلة على أنه كفر بالله : كالاستغاثة بالأموات أو الأصنام ، أو اعتقاد حل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحله الله ، أو تكذيب بعض رسله ، فهذه الأشياء تحبط الأعمال ، وتوجب الردة عن الإسلام ، كما سبق بيان ذلك . قال تعالى في سورة النساء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [2] فهنا قد بين الله أن الشرك لا يغفر ، ثم علق ما دونه على المشيئة ، فأمره إلى الله سبحانه وتعالى ، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه ، على قدر المعاصي التي مات عليها ، غير تائب ، ثم بعد أن يطهَر بالنار يخرجه الله منها إلى

(١) سورة الأنعام ، الآية ٨٨ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٤٨ .

الجنة ، بإجماع أهل السنة والجماعة ، خلافا للخوارج والمعتزلة ، ومن سار على نهجهم .

أما في آية الزمر ، فعمم وأطلق ، فقال سبحانه : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [1] . قال العلماء : هذه الآية في التائبين أما آية النساء فهي في غير التائبين ، ممن مات على الشرك مصرا على بعض المعاصي ، وهي قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [2] .

أما من مات على ما دون الشرك ، كالزنا والمعاصي الأخرى ، وهو يؤمن أنا محرمة ، ولم يستحلها ولكنه انتقل إلى الآخرة ولم يتب منها ، فهذا تحت مشيئة الله عند أهل السنة والجماعة إن شاء الله غفر له ، وأدخله الجنة لتوحيده وإسلامه ، وإن شاء سبحانه عذبه على قدر المعاصي التي مات عليها بالنار من الزنا وشرب الخمر ، أو عقوقه لوالديه ، أو قطيعة أرحامه ، أو غير ذلك من الكبائر ، كما سبق إيضاح ذلك .

وذهب الخوارج إلى أن صاحب المعصية مخلد في النار ، وهو بالمعاصي كافر أيضا ، ووافقهم المعتزلة بتخليده في النار ، ولكن أهل السنة والجماعة خالفوهم في ذلك ، ورأوا : أن الزاني والسارق والعاق لوالديه وغيرهم من أهل الكبائر لا يكفرون بذلك ، ولا يخلدون في النار ، إذا لم يستحلوا هذه المعاصي ، بل هم تحت مشيئة الله كما تقدم ، فهذه أمور عظيمة ينبغي أن نعرفها جيدا ، وأن نفهمها كثيرا لأنا من أصول العقيدة وأن يعرف المسلم حقيقة دينه ، وضده من الشرك بالله تعالى ، ويعلم أن باب التوبة من الشرك والمعاصي مفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربا .

ولكن المصيبة العظيمة ، وهي الغفلة عن دين الله ، وعدم التفقه فيه ، فربما وقع العبد في الشرك والكفر بالله وهو لا يبالي لغلبة الجهل ، وقلة العلم بما جاء به الرسول ﷺ من

(١) سورة الزمر ، الآية ٥٣ .

(٢) سورة النساء ، الآيتان ٤٨ ، ١١٦ .

الهدى ودين الحق . فانتبه لنفسك أيها العاقل ، وعظم حرمات ربك ، وأخلص لله العمل ، وسارع إلى الخيرات ، واعرف دينك بأدلته ، وتفقه في القرآن والسنة بالإقبال على كتاب الله ، وبحضور حلقات العلم وصحبة الأخيار ، حتى تعرف دينك على بصيرة .

وأكثر من سؤال ربك الثبات على الهدى والحق ، ثم إذا وقعت في معصية فبادر بالتوبة ، فكل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، كما جاء في الحديث الصحيح ؛ لأن المعصية نقص في الدين ، وضعف في الإيمان .

فالبدار البدار إلى التوبة ، والإقلاع والندم ، والله يتوب على من تاب ، وهو القائل سبحانه : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [1] وقال ﷻ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [2] . فالتوبة لا بد منها ، وهي لازمة للعبد دائما ، والرسول ﷺ يقول : « التوبة تدم ما كان قبلها » ، فاستقم عليها ، فكلما وقعت منك زلة فبادر بالتوبة والإصلاح ، وكن متفقها في دينك ، لا تشغل بحظك في الدنيا ، عن حظك من الآخرة ، بل اجعل للدنيا وقتا ، وللتعلم وللتفقه في الدين ، والتبصر والمطالعة والمذاكرة ، والعناية بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وحضور حلقات العلم ومصاحبة الأخيار - غالب وقتك ، فهذه الأمور هي أهم شأنك ، وسبب سعادتك .

وهناك نوع آخر وهو : الشرك الأصغر ، مثل : الرياء ، والسمعة في بعض العمل أو القول ، ومثل أن يقول الإنسان : ما شاء الله وشاء فلان ، والحلف بغير الله ، كالحلف بالأمانة والكعبة والنبي وأشباه ذلك ، فهذه وأشباهها من الشرك الأصغر ، فلا بد من الحذر من ذلك ، « قال النبي ﷺ لما قال له رجل : ما شاء الله وشئت : أجعلتني لله ندا ؟

(١) سورة النور ، الآية ٣١ .

(٢) سورة التحريم ، الآية ٨ .

ما شاء الله وحده ﴾ [1] ، وقال النبي ﷺ ﴿ " لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان ﴾ [2] ، وقال ﷺ ﴿ من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ﴾ [3] ، وقال : ﴿ لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون ﴾ [4] ، وقال ﷺ ﴿ من حلف بغير الله فقد أشرك ﴾ [5] ، إلى غير هذا من الأحاديث الصحيحة الواردة في هذا المعنى ، ومن ذلك قوله ﷺ ﴿ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فسئل عنه ، فقال : الرياء ﴾ [6] . وقد يكون الرياء كفرا أكبر إذا دخل صاحبه في الدين رياء ونفاقا ، وأظهر الإسلام لا عن إيمان ولا عن محبة ، فإنه يصير بذا منافقا كافرا كفرا أكبر .

وكذلك إذا حلف بغير الله ، وعظم المحلوف به مثل تعظيم الله ، أو اعتقد أنه يعلم الغيب ، أو يصلح أن يعبد مع الله سبحانه ، صار بذلك مشركا شركا أكبر . أما إذا جرى على اللسان الحلف بغير الله كالكعبة ، والنبي وغيرهما ، بدون هذا الاعتقاد فإنه يكون مشركا شركا أصغر فقط .

وأسأل الله ﷻ أن يمنحنا وإياكم الفقه في دينه والثبات عليه ، وأن يرزقنا وإياكم الاستقامة عليه ، وأن يعيذنا وإياكم من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، ومن مضلات الفتن ، إنه تعالى جواد كريم .

---

(١) النسائي الأيمان والنذور (٣٧٧٣) ، أحمد (٣٧٢/٦) .
(٢) أبو داود الأدب (٤٩٨٠) ، أحمد (٣٩٩/٥) .
(٣) البخاري الشهادات (٢٥٣٣) ، مسلم الأيمان (١٦٤٦) ، الترمذي النذور والأيمان (١٥٣٤) ، أبو داود الأيمان والنذور (٣٢٤٩) ، أحمد (١١/٢) ، مالك النذور والأيمان (١٠٣٧) ، الدارمي النذور والأيمان (٢٣٤١) .
(٤) البخاري المناقب (٣٦٢٤) ، مسلم الأيمان (١٦٤٦) ، الترمذي النذور والأيمان (١٥٣٤) ، النسائي الأيمان والنذور (٣٧٦٦) ، أبو داود الأيمان والنذور (٣٢٤٩) ، ابن ماجه الكفارات (٢٠٩٤) ، أحمد (١٤٢/٢) ، مالك النذور والأيمان (١٠٣٧) ، الدارمي النذور والأيمان (٢٣٤١) .
(٥) الترمذي النذور والأيمان (١٥٣٥) ، ابن ماجه الكفارات (٢٠٩٤) ، أحمد (٦٩/٢) .
(٦) أحمد (٤٢٨/٥) .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين .

توحيد المرسلين وما يضاده من الكفر والشرك

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، وآل كُل وسائر الصالحين . أما بعد :

فلما كان توحيد الله ﷻ والإيمان به وبرسله عليهم الصلاة والسلام ، أهم الواجبات وأعظم الفرائض ، والعلم بذلك أشرف العلوم وأفضلها ، ولما كانت الحاجة إلى هذا الأصل الأصيل داعية إلى بيانه بالتفصيل - رأيت إيضاح ذلك في هذه الكلمة الموجزة لشدة الحاجة إلى ذلك ، ولأن هذا الموضوع العظيم جدير بالعناية ، وأسأل الله ﷻ أن يوفقنا جميعًا لإصابة الحق في القول والعمل ، وأن يعيذنا جميعًا من الخطأ والزلل . فأقول ومن الله سبحانه وتعالى أستمد العون والتوفيق :

لا ريب أن التوحيد هو أهم الواجبات ، وهو أول فريضة ، وهو أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو زبدة هذه الدعوة ، كما بين ذلك ربنا ﷻ في كتابه المبين ، وهو أصدق القائلين ، حيث يقول سبحانه عن جميع المرسلين : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ (١) .

أوضح جل وعلا أنه بعث في جميع الأمم في كل أمة رسولا يقول لهم : اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت ، هذه دعوة الرسل كل واحد يقول لقومه وأمته : اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت .

المعنى : وحَدوا الله لأن الخصومة بين الرسل والأمم في توحيد العبادة ، وإلا فالأمم تقر بأن الله ربا وخالقها ورازقها ، وتعرف كثيرا من أسمائه وصفاته ، ولكن اا اع والخصومة من عهد نوح إلى يومنا هذا في توحيد الله بالعبادة ، فالرسل تقول للناس : أخلصوا العبادة له ، وحّدوه با ، واتركوا عبادة ما سواه ، وأعداؤهم وخصومهم يقولون : لا ، بل نعبده ونعبد غيره ، ما نخصه بالعبادة .

---

(١) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

هذا هو محل النزاع بين الرسل والأمم . الأمم لا تنكر عبادته بالجملة ، بل تعبده ، ولكن النزاع هل يخص بها أم لا يخص ؟ . فالرسل بعثهم الله لتخصيص الرب بالعبادة ، وتوحيده بها دون كل ما سواه ؛ لكونه ﷻ المالك ، القادر على كل شيء ، الخلاق ، الرزاق للعباد ، العليم بأحوالهم ، إلى غير ذلك .

فلهذا دعت الرسل عليهم الصلاة والسلام جميع الأمم ، إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له سبحانه وَتَعَالَى ، وترك عبادة ما سواه .

وهذا هو معنى قوله ﷻ ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [1] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذا المعنى : العبادة هي التوحيد . وهكذا قال جميع العلماء : إن العبادة هي التوحيد . إذ هو المقصود ، والأمم الكافرة تعبد الله وتعبد معه سواه ، كما قال جل وعلا : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧ ﴾ [2] فتبرأ من معبوداتهم كلها إلا فاطره سبحانه : أي خالقه . فعلم أنهم يعبدونه ، ويعبدون معه غيره .

فلهذا تبرأ الخليل من معبوداتهم سوى خالقه وفاطره ﷻ وهو الله سبحانه وتعالى . وهكذا قوله ﷻ ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي ﴾ [3] فعلم أنهم يعبدون الله ، ويعبدون معه غيره . والآيات في هذا المعنى كثيرة ، فعلمنا بذلك أن المقصود من دعوة الرسل : تخصيص الله بالعبادة ، وإفراده بها ، لا يدعى إلا هو جل وعلا ، ولا يستغاث إلا به ، ولا ينذر إلا له ، ولا يذبح إلا له ، ولا يُصلى إلا له . . إلى غير ذلك من العبادات ، فهو المستحق لها جل وعلا دون كل ما سواه ، وهذا هو معنى لا إله إلا الله ، فإن معناها : لا معبود حق إلا الله .

---

(١) سورة النحل ، الآية ٣٦ .
(٢) سورة الزخرف ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) سورة مريم ، الآية ٤٨ .

هذا هو معناها عند أهل العلم ؛ لأن الآلهة موجودة بكثرة والمشركون من قديم الزمان : من عهد نوح يعبدون آلهة من دون الله ، منها : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، وغير ذلك .

وهكذا العربُ عندها آلهة كثيرة . وهكذا الفرسُ والرومُ وغيرهم كلهم عندهم آلهة يعبدونها مع الله . فعلم بذلك أن المقصود بقول : لا إله إلا الله هو المقصود بدعوة الرسل : وهو أن يوحد الله ، ويخص بالعبادة دون كل ما سواه جل وعلا ، ولهذا يقول سبحانه في كتابه المبين : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ (1) . فاتضح بذلك أن المقصود : تخصيصه بالعبادة دون كل ما سواه ، وأنه سبحانه المعبود الحق جل وعلا ، وأن ما عبد من دونه معبود باطل ؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (2) .

أي : وحدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، أي : اتركوا عبادة الطاغوت ، وابتعدوا عنها .

والطاغوت : كل ما عُبد من دون الله من الإنس والجن والملائكة ، وغير ذلك من الجمادات ، ما لم يكن يكره ذلك ولا يرضى به .

والمقصود : أن الطاغوت : كل ما عبد من دون الله من الجمادات وغيرها ، ممن يرضى بذلك ، أما من لا يرضى بذلك ؛ كالملائكة ، والأنبياء ، والصالحين فالطاغوت : هو الشيطان الذي دعا إلى عبادتهم ، وزينها للناس .

فالرسل والأنبياء والملائكة ، وكل صالح لا يرضى أن يعبد من دون الله أبدًا ، بل ينكر ذلك ويحاربه ، فليس بطاغوت ، وإنما الطاغوت : كل ما عبد من دون الله ممن يرضى بذلك كفرعون ، وإبليس وأشباههما ممن يدعو إلى ذلك ، أو يرضى به . وهكذا الجمادات من الأشجار والأحجار والأصنام المعبودة من دون الله ، كلها تسمى :

(1) سورة الحج ، الآية ٦٢ .

(2) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

طاغوتا ؛ بسبب عبادتنا من دون الله .

وفي هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [1] . وهذه الآية مثل الآية السابقة ، يبين فيها سبحانه أن دعوةَ الرسل جميعا : هي الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده جل وعلا دون كل ما سواه ، ولو كان قوله : لا إله إلا الله يكفي مع قطع النظر عن تخصيص الله بالعبادة والإيمان بأنه هو المستحق لها ، لما امتنع الناس من ذلك ، ولكن المشركين عرفوا أن قولها يبطل آلهتهم ، وأن قولها يقتضي : أن الله هو المعبود الحق ، والمختص بذلك جل وعلا .

فلهذا أنكروها وعادَوها واستكبروا عن الاستجابة لها ، فاتضح بذا أن المقصود من ذلك : تخصيص الله بالعبادة ، وإفراده بما دون جميع ما عبد من دونه سبحانه وتعالى ، من أنبياء ، أو ملائكة ، أو صالحين ، أو جن أو غير ذلك ؛ لأن الله سبحانه هو المالك الرازق القادر المحيي المميت ، الخالق لكل شيء ، المدبر لأمور العباد ، فهو المستحق لأن يعبد جل وعلا ، وهو العليم بأحوالهم سبحانه وتعالى ؛ فلذلك بعث الرسل لدعوة الخلق إلى توحيده والإخلاص له ، ولبيان أسمائه وصفاته ، وأنه المستحق لأن يعبد ويعظم ؛ لكمال علمه ، وكمال قدرته ، وكمال أسمائه وصفاته ، ولأنه عَزَّ وَجَلَّ النافع الضار ، العالم بأحوال عباده ، السميع لدعائهم ، الكفيل بمصالحهم جل وعلا ، فهو المستحق لأن يعبد جل وعلا دون ما سواه سبحانه وتعالى ، وقد أخبر سبحانه عن نوح وهود وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام أنهم قالوا لقومهم : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [2] فهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [3] .

وقد أجاب قوم هود نبيهم عليه الصلاة والسلام بقولهم : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥ .
(٢) سورة هود ، الآية ٥٠ .
(٣) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [1] . فقد علموا المعنى وعرفوه وهو : أن دعوة هود عليه الصلاة والسلام تقتضي إخلاص العبادة لله وحده ، وخلع الأوثان المعبودة من دونه ، ولهذا قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [2] . فاستمروا على العناد والتكذيب ، حتى نزل بهم العذاب ، نسأل الله العافية .

والله سبحانه أنزل الكتب وأرسل الرسل ؛ ليعبد وحده لا شريك له ، وليبين حقه لعباده ، ويذكر للعباد ما هو موصوف به سبحانه من أسمائه الحسنى وصفاته العلا ؛ ليعرفوه جل وعلا بأسمائه وصفاته وعظيم إحسانه ، وكمال قدرته ، وإحاطة علمه جل وعلا ؛ وما ذاك إلا لأن توحيد الربوبية هو الأساس والأصل لتوحيد الإلهية والعبادة ؛ فلهذا بعثت الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنزلت الكتب السماوية من الله ﷻ لبيان صفاته وأسمائه ، وعظيم إحسانه ، وبيان استحقاقه أن يعظم ويدعى ويسأل جل وعلا ، حتى تخضع الأمم لعبادته وطاعته ، وحتى تنيب إليه ، وحتى تعبده دون كل ما سواه جل وعلا ، وهذا موجود كثيرا في كتاب الله ﷻ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك عن كثير من رسله عليهم السلام ، فقال سبحانه : ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ [3] وقال جل وعلا : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [4] فبين عليه الصلاة والسلام أنه معتمد

(١) سورة الأعراف ، الآية ٧٠ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية ٧٠ .
(٣) سورة إبراهيم ، الآية ١٠ .
(٤) سورة يونس ، الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

على الله ، وأنه متوكل عليه جل وعلا ، وأنه لا يبالي بتهديدهم وتخويفهم ، وأنه لا بد له من تبليغ رسالات الله ، فقد بلغ فعلا عليه الصلاة والسلام ، فعرَفهم بقدرة ربه وعظمته ، وأنه هو المحيط بالجميع ، والقادر على إنجائه ، وعلى إهلاك أعدائه ، كما أنه القادر على حفظ رسله وأنبيائه ، وإحاطتهم بكلاءته ، وإعانتهم على تنفيذ ما جاءوا به من الهدى ، وأنزل في هذا سورة تتعلق بنوح عليه الصلاة والسلام ، حيث قال جل وعلا : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾(1) .

فأوضح سبحانه على لسان نبيه نوح عليه الصلاة والسلام شيئا من صفاته ﷻ وأنه الذي يمدهم بما يمدهم به من الأرزاق ، والخير الكثير ، والنعم العظيمة ، وأنه المستحق لأن يعبد ويطاع ، ويعظم جل وعلا .

وقال عن هود عليه الصلاة والسلام ، وعن قومه في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ

(1) سورة نوح ، الآيات ١ - ١٤ .

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [1] .

فأوضح الله جل وعلا على لسان نبيهم هود عليه الصلاة والسلام كثيرا من النعم التي أنعم با عليهم جل وعلا ، وأنه رب الجميع ، وأن الواجب عليهم : الخضوع له ، وطاعة رسوله وتصديقه ، ولكنهم أبوا واستكبروا ف ل بم عذاب الله من الريح العقيم .

وقال عن صالح عليه السلام : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [2] . الآيات .

فبين صالح عليه الصلاة والسلام ما يتعلق بالله ، وأنه رب العالمين ، وأنه أعطاهم ما أعطاهم من النعم . فكان الواجب عليهم : الرجوع إليه ، وتصديق رسوله صالح ، وطاعته فيما جاء به ، وأن لا يطيعوا المسرفين المفسدين في الأرض ، ولكنهم لم يبالوا بذه النصيحة ، ولم يبالوا بذا التوجيه ، بل استمروا في عنادهم وضلالهم وكفرهم حتى أهلكهم الله بالصيحة والرجفة ، نسأل الله العافية .

وذكر سبحانه وتعالى أيضا عن خليله : إبراهيم عليه الصلاة والسلام شيئا من صفاته ﷻ وأنه ذكرها لقومه لينيبوا إلى الله ، وليعبدوه ويعظموه ، حيث قال سبحانه وتعالى في سورة الشعراء : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [3] .

(١) سورة الشعراء ، الآيات ١٢٣ - ١٣٥ .
(٢) سورة الشعراء ، الآيات ١٤١ - ١٥٢ .
(٣) سورة الشعراء ، الآيات ٦٩ - ٧٣ .

ينبغي الوقفة عند هذا فإن الله سبحانه بذا يبين لهم أن هذه الأصنام لا تصلح للعبادة لأنا لا تسمع ولا تجيب الداعي ، ولا تنفع ولا تضر لأنا جماد لا إحساس لها بحاجة الداعين وسؤالهم ، وما لديهم من ضرورات ، فكيف تدعى من دون الله ، فلهذا قال : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [(١)] . ماذا أجابوا ؟ حاروا وحادوا عن الجواب ؛ لأنم يعلمون أن هذه الآلهة ليس عندها نفع ولا ضر ، وليست تسمع دعاء الداعين ولا تجيبه .

فلهذا قالوا : ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [(٢)] ولم يقولوا : إنم يسمعون أو ينفعون أو يضرون ، بل حادوا عن الجواب ، وأتوا بجواب يدل على الحيرة والشك ، بل والاعتراف بأن هذه الآلهة لا تصلح للعبادة ، فقالوا : ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [(٣)] يعني : سرنا على طريقتهم وسبيلهم من غير نظر فيما قلت لنا . وهذا معنى قوله في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [(٤)] هذه طريقتهم الملعونة الخبيثة التي سلكوها واحتجوا با ، وساروا عليها ، نسأل الله السلامة ، ثم قال لهم الخليل عليه السلام : ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [(٥)] . مراده بذلك معبوداتم من الأصنام ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [(٦)] .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان ٧٢ ، ٧٣ .
(٢) سورة الشعراء ، الآية ٧٤ .
(٣) سورة الشعراء ، الآية ٧٤ .
(٤) سورة الزخرف ، الآية ٢٣ .
(٥) سورة الشعراء ، الآيات ٧٥ - ٧٧ .
(٦) سورة الشعراء ، الآية ٧٧ .

فقوله : ﴿ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [1] ، يدلنا على أنه كان عليه الصلاة والسلام يعلم أنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره ، ولهذا استثنى ربه ، فقال : ﴿ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [2] ، كما في الآية الأخرى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [3] فعلم بذلك : أن المشركين يعبدون الله ، ويعبدون معه سواه ، ولكن النزاع بينهم وبين الرسل في تخصيص الله بالعبادة ، وإفراده بها دون كل ما سواه جل وعلا .

ثم قال بعد ذلك في بيان صفات الرب : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [4] . هذه أفعال الرب جل وعلا : يشفي المرضى ، ويميت ويحيي ، ويطعم ويسقي ، ويهدي من يشاء ، وهو الخلاق القادر على مغفرة الذنوب وستر العيوب فلهذا استحق العبادة على عباده جل وعلا ، وبطلت عبادة كل ما سواه لأنهم لا يخلقون ولا يرزقون ، ولا ينفعون ولا يضرون ، ولا يعلمون المغيبات ، ولا يستطيعون لداعيهم أن يقدموا شيئا ، نفعا أو ضرا ، كما قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ ﴾ [5] فبين عجزهم ، وبين أن دعوتم من دون الله شرك بالله ﷻ ولهذا قال : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ ﴾ [6] فبين سبحانه : عجز هذه الآلهة جميعها ، وبين أنهم بهذا الدعاء قد أشركوا بالله عز وجل . وهنا قال : ﴿ وَٱلَّذِى أَطْمَعُ

---

(١) سورة الشعراء آية: ٧٧ .
(٢) سورة الشعراء آية: ٧٧ .
(٣) سورة الزخرف ، الآية ٢٧ .
(٤) سورة الشعراء ، الآيات ٧٨ - ٨١ .
(٥) سورة فاطر ، الآيتان ١٣ - ١٤ .
(٦) سورة فاطر ، الآية ١٤ .

أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [1] يعني : أطمع أنه سبحانه يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، فهو جل وعلا ينفع في الدنيا ، وينجي في الآخرة ، أما هذه الأصنام فلا تنفع لا في الدنيا ولا في الآخرة . بل تضره ولهذا قال عن خليله : إبراهيم : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [2] .

هذا كله يدل على : الإيمان بالآخرة ، والدعوة إلى ذلك ، وتنبيه العباد على أن هناك آخره لا بد من المصير إليها ، وهناك جزاءً وحسابا ، ولهذا قال بعده : ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [3] دعا له بالمغفرة قبل أن يعلم حاله ، فلما علم حاله تبرأ منه ، كما قال في سورة العنكبوت : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [4] فبَين عليه الصلاة والسلام : أن العبادة حق الله ، وأنه يجب أن ُيتقى ويعبدَ سبحانه وتعالى ، وأن الذي فعلوه إفك لا أساس له ، وأن معبوداتم لا تملك لهم رزقا أبدأ ، كما أنا لا تنفعهم ولا تضرهم ، فهي أيضا لا تملك لهم رزقا ، بل الله جل وعلا هو الرزاق ، ولهذا قال : ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ [5] فهو سبحانه الذي يعبَد ، ويطلب الرزق منه جل وعلا ، دون كل

(١) سورة الشعراء ، الآية ٨٢ .
(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٨٢ ، ٨٥ .
(٣) سورة الشعراء ، الآيتان ٨٥ ، ٨٦ .
(٤) سورة العنكبوت ، الآيتان ١٦ ، ١٧ .
(٥) سورة العنكبوت ، الآية ١٧ .

ما سواه سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [1] فالمرجع إليه ، وهو سبحانه المالك لكل شيء ، وان القادر على كل شيء ، والمستحق لأن يشكر لكمال إنعامه وإحسانه ، وهو الذي يطلب الرزق جل وعلا ، ولهذا قال في آيات أخرى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [2] وقال ﷻ ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [3] .

والآيات الدالة على أن الله سبحانه أمر الرسل أن يوجهوا العباد إليه ، وأن يعرفوهم بخالقهم ورازقهم وإلههم سبحانه - كثيرة جدا ، موجودة في كتاب الله من تأمل القرآن وجد ذلك واضحا بينا ، فالرسل أفصح الناس وأعرف الناس بالله عليهم الصلاة والسلام ، وأكملهم نشاطا في الدعوة إليه ، فليس هناك من هو أصبر منهم على الدعوة ولا أعلم منهم بالله ، ولا أحب لهداية الأمم منهم عليهم الصلاة والسلام . ولهذا بلغوا رسالات الله أكمل تبليغ وأتمه ، وبينوا للناس صفات الخالق المعبود وأسماءه سبحانه وأفعاله ، وفصلوها كي يعلم العباد ربهم ، وحتى يعرفوه بأسمائه وصفاته وعظيم حقه على عباده ، وحتى ينيبوا إليه عن بصيرة وعلم . ومن هذا ما ذكره الله عن موسى عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ۝ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [4] .

أمره أن يبين له : أنه رسول رب العالمين لعله يتذكر فينيب إلى الحق ، لكنه لم

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ١٧ .
(٢) سورة الذاريات ، الآية ٥٨ .
(٣) سورة هود ، الآية ٦ .
(٤) سورة الشعراء ، الآيات ١٠ -١٦ .

يتذكر ، بل أعرض عن ذلك ، وقال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [1] فانظروا كيف يبين له موسى عليه الصلاة والسلام صفات الرب ﷻ وأنه رب العالمين ، ورب السماوات ، ورب الأرض وما بينهما ورب الخلائق كلها ، ورب المشرق والمغرب ، حتى يعلم عدو الله هذه الصفات لعله يرجع إلى الحق والصواب ولكن سبق في علم الله أنه يستمر على طغيانه وضلاله ، ويموت على كفره وعناده ، نسأل الله العافية .

وبين الله سبحانه وتعالى لهارون وموسى أنه معهما يسمع ويرى ، وأنه حافظهما وناصرهما ومؤيدهما ؛ فلهذا أقدما على دعوة هذا الجبار العنيد المتكبر المتغطرس الذي قال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [2] فصانهما وحماهما من شره وكيده .

ولا شك أن هذا كله من حفظ الله وعنايته برسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام : رجل متكبر طاغية ، ملك لعين يدعي أنه رب العالمين ، ومع هذا أقدما على دعوته وبيان حق الله عليه ، وأن الواجب عليه : أن ينيب إلى الله ، ولكنه أبى واستكبر ، ثم دعا إلى ما دعا إليه من جمع السحرة والسحر إلى غير ذلك ، حتى أبطل الله كيده ، وأظهر عجزه ، ونصر موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - عليه وعلى سحرته ، ثم صارت العاقبة - لما استمر في الطغيان - أن أغرقه الله وجميع جنده في البحر ، وخلص موسى

(١) سورة الشعراء ، الآيات ١٨ -٢٨ .
(٢) سورة النازعات ، الآية ٢٤ .

وهارون ومن معهما من بني إسرائيل .

هذه من آيات الله البالغة ، في انتقام الله من أعدائه ، ونصره لأوليائه : رجلان ليس معهما إلا جماعة مستعبدون لفرعون يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب ، يقدمان على دعوة ملك جبار ، وبيان الحق له ، وإنكار ما هو عليه من الباطل ، فيحميهما الله من ظلمه وبطشه ، بل ويثبتهما ويؤيدهما جل وعلا ، وينطقه بما يقيم الحجة عليه ، ولهذا قال في الآية الأخرى : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥ ﴾ (١) .

والمقصود : أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بينوا الحق وأوضحوه ، وبينوا أسماء الرب وصفاته الدالة على قدرته العظيمة واستحقاقه العبادة ، وأنه الخالق المالك الرازق المحيي المميت المدبر لكل شيء جل وعلا ، وبينوا أيضا علو الله وفوقيته على خلقه .

ولهذا قال فرعون لوزيره هامان : ﴿ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ (٢) أخبره : أن الله فوق السماء جل وعلا .

ولهذا أراد هذا الجبار أن يتطاول بذا الكلام القبيح الساقط الذي لا قيمة له . ومن هذا ما ذكره الله جل وعلا عن عيسى عليه الصلاة والسلام والحواريين في سورة المائدة ، حيث قال سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ

(١) سورة طه ، الآيات ٤٩ - ٥٥ .

(٢) سورة غافر ، الآيتان ٣٦ - ٣٧ .

رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [1] .

ففي هذا بيان شيء من قدرة الله جل وعلا ، وأنه سبحانه القادر على كل شيء ، وأنه سبحانه في العلو لأن الإنزال يكون من الأعلى إلى الأسفل ، فإنزال المائدة وطلب إنزالها ، كل ذلك دليل على : أن القوم قد عرفوا أن ربهم في العلو ، فهم أعرف بالله ، وأعلم به من الجهمية وأضرابهم ممن أنكر العلو . فالحواريون طلبوا ذلك ، وعيسى بين لهم ذلك ، والله بين ذلك أيضا ، ولهذا قال : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ ﴾ [2] .

فدل ذلك على : أن ربنا جل وعلا يطلب من أعلى ، وأنه في العلو سبحانه وتعالى فوق السماوات ، وفوق جميع الخلائق ، وفوق العرش ، قد استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته ، لا يشابه خلقه في شيء من صفاته جل وعلا .

وقد دل على هذا المعنى : آيات كثيرات مصرحة بعلو الله سبحانه وتعالى على خلقه ، ومن ذلك آيات الاستواء السبع المعروفة التي فيها قوله سبحانه في سورة الأعراف :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [3] وفي هذه الآية يبين علوه ، وأنه الخلاق الرزاق ، وأنه صاحب الخلق والأمر سبحانه وتعالى ، وأنه الذي يغشي الليل النهار ، وأنه خالق الشمس والقمر ، وخالق النجوم ليعلم العباد عظيم شأنه ، وكمال قدرته ، وكمال علمه سبحانه ، وأنه العالي فوق جميع خلقه ، المستحق لأن يعبد سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة المائدة ، الآيات ١١٢ - ١١٥ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ١١٥ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٥٤ .

ومن هذا الباب قول الله ﷻ ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [(١)] فانظر كيف بين هذه الصفات العظيمة لله ﷻ الداعية إلى عبادته وحده ، دون كل ما سواه ، وأنه علام الغيوب ، وأنه العزيز الحكيم ، وأنه الرقيب على عباده ، والشهيد عليهم ، وأنه يعلم ما في نفس نبيه عيسى ، وعيسى لا يعلم ما في نفسه سبحانه وتعالى .

وفي هذا أيضا دلالة على إثبات الصفات ، وأن الأنبياء جاءوا بإثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى ، وأنه جل وعلا يوصف بأن له نفسا تليق به ﷻ لا تشابه نفوس المخلوقين كما أنه سبحانه له وجه وله يد وله قدم وله أصابع لا تشابه صفات المخلوقين ، جاء بعض هذا في الكتاب العزيز ، وجاء في السنة المطهرة ذكر الوجه واليد والقدم والأصابع ، كل ذلك دليل على : أنه سبحانه موصوف بصفات الكمال ، وأنه لا يلزم من ذلك مشابهته للخلق ، ولهذا قال ﷻ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [(٢)] . سبحانه وتعالى . فنفى عن نفسه المماثلة ، ثم أثبت لنفسه السمع والبصر ، فدل ذلك على : أن صفاته وأسماءه لا شبيه له فيها ، ولا مثيل له فيها ، بل هو جل وعلا الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فهو المستحق لأن يعبد ويعظم جل وعلا . أما المخلوقون فصفاتهم ضعيفة وناقصة ، أما هو جل وعلا فهو الكامل في كل شيء ، فعلمه كامل وصفاته كاملة كلها ولا شك أن صفات المخلوقين لا تماثل صفاته أبدا بوجه من الوجوه ،

(١) سورة المائدة ، الآيات ١١٦ -١١٨ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ١١ .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [1] وقال ﷻ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [2] . وقال سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [3]

فأهل السنة والجماعة يثبتون ما ورد في كتاب الله وما صح عن رسول الله ﷺ من أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به جلا وعلا من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا زيادة ولا نقصان ، بل يثبتونا كما جاءت ، ويمرونا كما جاءت مع الإيمان بأنا حق ، وأنا ثابتة لله سبحانه على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى ، لا يشابه فيها خلقه ، كما قال ﷻ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [4] وهذه مسائل من مسائل التوحيد ، وهي من أهم المسائل ، والله سبحانه وتعالى بين في كتابه العزيز أسماءه وصفاته ، وكرر ذلك في مواضع كثيرة حتى يعرف الله سبحانه وتعالى بعظيم أسمائه ، وعظيم صفاته وعظيم أفعاله جل وعلا ، فأفعاله كلها جميلة ، وأسماؤه كلها حسنى ، وصفاته كلها عُلى ، وبذلك يعلم العباد ربم وخالقهم فيعبدونه على بصيرة ، وينيبون إليه على علم ، وأنه يسمع دعاءهم ، ويجيب مضطرهم ، وأنه على كل شيء قدير سبحانه وتعالى .

ومن هذا ما ذكره الله جل وعلا عن قوم موسى من بني إسرائيل لما عبدوا العجل أوضح لهم سبحانه فساد أمرهم ، وبطلان ما فعلوه ، فقال جل وعلا : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ

(١) سورة النحل ، الآية ٧٤ .
(٢) سورة الإخلاص كاملة .
(٣) سورة الشورى ، الآية١١ .
(٤) سورة الشورى ، الآية ١١ .

ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [(١)] فبين لنا : أن الإله المستحق للعبادة يجب أن يكون متكلما ، وأن يكون سميعا بصيرا ، وأن يكون يهدي السبيل ، وأن يكون بيده القدرة على كل شيء ، والعلم لكل شيء ، أما عجل جماد يعبد من دون الله ، فهذا من فساد العقول : عجل لا يجيب الداعي ، ولا يبين كلاما ، ولا يرد جوابا ، ولا ينفع ولا يضر ، فكيف يعبَد من دون الله ؟ ! .

وفي الآية الأخيرة ، يقول جل وعلا : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [(٢)] أي : أنه لا يرجع لهم قولا ، ومعنى يرجع : يرد ، فإن رجعك الله : ردك الله ، يعني : أن هذا العجل لا يرد قولا لمن كلمه وخاطبه ، ولا يملك ضرا ولا نفعا ، فكيف تصرف له العبادة لو كانت العقول سليمة وهذا المعنى في كتاب الله كثير جدا ، يبين الله سبحانه وتعالى لعباده أنه المستحق للعبادة لكماله وقدرته العظيمة ، وأنه المالك لكل شيء والقادر على كل شيء ، الذي يسمع دعاء الداعين ، ويقدر على قضاء حاجتهم ويجيب مضطرهم ، ويملك الضر والنفع ، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، سبحانه وتعالى .

وقد بعث الله نبينا محمدا ﷺ وهو سيد الخلق ، وأفضلهم ، وإمام المرسلين ، بعثه بما بعث به المرسلين الأولين : من توحيد الله ، والإخلاص له ، والدعوة إلى ذلك ، وبيان صفاته وأسمائه ، وأنه المستحق لأن يعبد جل وعلا ، فكانت دعوته دعوة كاملة ، قال جل وعلا : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [(٣)] . وأنزل عليه كتابا عظيما ، وهو أشرف الكتب وأعظمها وأنفعها وأعمها ، بين فيه أدلة التوحيد ، وأنه الرب العظيم ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، النافع الضار ، وأمر نبيه أن

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٨ .
(٢) سورة طه ، الآية ٨٩ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .

يبلغ الناس ذلك في آيات كثيرات ، من تدبر القرآن عرفها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (١) وقال سبحانه ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢) فأمر الله نبيه ﷺ أن يحتج عليهم بما أقروا به من أفعال الرب وقدرته ، وأنه يحيي ويميت ، وأنه المدبر الرزاق على ما جحدوا في توحيد العبادة وأنكروه .

والمعنى : إذا كنتم مقرين بأن هذا هو ربكم الذي يملك الضر والنفع ، ويدبر الأمور ، ويحيي ويميت ، ويرزق عباده ، فكيف لا تتركون الإشراك به ، وتعبدونه وحده دون ما سواه جل وعلا ، ومن هذا قوله سبحانه : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣) والآيات بعدها .

فكل هذا تذكير من الله لعباده على يد رسوله محمد ﷺ بعظيم حقه ، وبأسمائه وصفاته ، وأنه ﷻ المستحق لأن يعبد لكمال قدرته ، وكمال علمه وكمال إحسانه ، وأنه النافع الضار ، وهو القادر على كل شيء ، المتفرد في أفعاله وأسمائه وصفاته عن المشابه والنظير جل وعلا .

ولما بعث الله نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام ، بدأ دعوته بالتوحيد ، كالرسل السابقين سواء ، فقال لقريش : ﴿ يا قوم ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ﴾ (٤) . هكذا بدأهم ، ما أمرهم بالصلاة أو الزكاة أولا ، أو ترك الخمر أو الزنا أو شبه ذلك .

لا ، بل بدأهم بالتوحيد لأنه الأساس ، فإذا صلح الأساس جاء غيره بعد ذلك .

---

(١) سورة لقمان ، الآية ٢٥ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٣١ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .
(٤) أحمد (٤٩٢/٣) .

فبدأهم بالأساس العظيم : وهو توحيد الله والإخلاص له ، والإيمان به وبرسله .

فأساس الملة وأساس الدين في شريعة كل رسول : توحيد الله ، والإخلاص له ، فتوحيد الله والإخلاص هو دين جميع المسلمين ، وهو محل دعوتم جميعا ، وزبدة رسالتهم عليهم الصلاة والسلام كما سلف ، ولما قال الرسول عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿ قولوا : لا إله إلا الله ﴾ [1] ، استنكروا ذلك ، واستغربوه لأنه خلاف ما هم عليه وآباؤهم ، فقد ساروا على الشرك ، وعبادة الأوثان من دهر طويل ، بعدما غير عليهم دينهم عمرو بن لحي الخزاعي الذي كان رئيسا في مكة ، فيقال : إنه سافر إلى الشام ، ووجد الناس يعبدون الأصنام هناك فجاء إلى مكة ودعا الناس إلى عبادة الأصنام ؛ تقليدا للكفار هناك ، ويقال : إنه قيل له : إيت جدة ، تجد فيها أصناما معدة ، فخذها ولا تب ، وادع العرب إلى عبادتا تجب .

فاستخرجها ونشرها بين العرب فعبدوها وهي : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، التي كانت معبودة في قوم نوح ، فاشتهرت بين العرب ، وعبدت من دون الله ؛ بسبب عمرو بن لحي المذكور ، ثم أوجدوا أصناما وأوثانا أخرى ، في سائر القبائل يعبدونا مع الله ، يسألونا قضاء الحوائج ، ويجعلونا آلهة مع الله ، ويتقربون إليها بأنواع القربات كالذبح ، والنذر ، والدعوات ، والتمسح ، وغير ذلك . ومن ذلك العزى : لأهل مكة ، ومناة : لأهل المدينة ومن حولهم ، واللات : لأهل الطائف ومن حولهم ، إلى غير ذلك من الأوثان والأصنام الكثيرة في العرب ، فلما دعاهم هذا النبي الكريم رسولنا عليه الصلاة والسلام إلى توحيد الله وترك آلهتهم ، أنكروا عليه ذلك ، وقالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [2] .

وقال جل وعلا عنهم في سورة الصافات : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ

---

(١) الترمذي تفسير القرآن (٣٢٣٢) .

(٢) سورة ص ، الآية ٥ .

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [1] . فانظر يا أخي ، كيف غلب عليهم الجهل حتى جعلوا الدعوة إلى توحيد الله أمرا عجابا ، واستكبروا عنه ، واستغربوه ، وعادوا من دعاهم إليه حتى قاتلوه ، وانتهى الأمر أن جمع رأيهم على قتله ، فأنجاه الله من مكرهم ، وهاجر من بين أظهرهم إلى المدينة عليه الصلاة والسلام ، ثم حاولوا قتله أيضا يوم بدر فلم يفلحوا ، وحاولوا ذلك يوم أحد بأشد مما قبل ، فكفاه الله مكرهم وكيدهم ، ثم حاولوا يوم الأحزاب استئصال الدعوة والقضاء على الرسول وأصحابه ، فأبطل الله كيدهم ، وفرق شملهم ، وأنجاه الله من شرهم ومكائدهم ، ونصر دينه ، وأيد دعوته ، وأعانه على جهاد أعدائه حتى أقر الله عينه قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بانتصار دين الله وظهور الحق ، وانتشار التوحيد في الأرض ، والقضاء على الأوثان والأصنام ، بعدما فتح الله عليه مكة في السنة الثامنة من الهجرة في رمضان ، ودخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجا بسبب فتح الله عليه مكة ، ودخول قريش في الإسلام ، ثم تتابعت العرب في الدخول في دين الله ، وقبول ما دعا إليه عليه أفضل الصلاة والسلام ، من توحيد الله ، والإخلاص له جل وعلا ، والتمسك بشريعته سبحانه وتعالى .

والمقصود : أن رسولنا ونبينا محمدا عليه الصلاة والسلام دعا إلى ما دعت إليه الرسل قبله - من نوح ومن بعده - إلى توحيد الله ، والإخلاص له ، وترك عبادة ما سواه .

هذه أول دعوته ، وهذه زبدتنا ، وهي أهم واجب ، وأول واجب ، وأعظم واجب ، وكان بنو آدم على التوحيد من عهد آدم إلى عهد نوح عليه السلام عشرة قرون ، كما قال ابن عباس وجماعة ، فلما اختلفوا بسبب الشرك الذي وقع في قوم نوح ، بعث الله الرسل ، قال الله ﷻ ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [2] المعنى : كان الناس أمة واحدة على التوحيد والإيمان ، فاختلفوا بعد ذلك ، كما قال في

(١) سورة الصافات ، الآيتان ٣٥ - ٣٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٣ .

آية أخرى في سورة يونس : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ (١) .

فالمعنى : أنم كانوا على التوحيد والإيمان ، هذا هو القول الحق ، ثم اختلفوا بعد ذلك بينهم بسبب دعوة الشيطان ، إلى عبادة : ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر . فلما وقع الشرك في قوم نوح بسبب غلوهم في الصالحين ، وتزيين الشيطان لهم عبادتم من دون الله ، بعث الله إليهم نوحا عليه الصلاة والسلام ، فدعاهم إلى توحيد الله والإخلاص له ، وترك عبادة ما سواه جل وعلا .

فكان نوح عليه الصلاة والسلام أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بعدما وقع الشرك فيها ، أما آدم فجاءت أحاديث ضعيفة تدل على أنه نبي ورسول مكلم ، لكنها لا يعتمد عليها لضعف أسانيدها ، ولا شك أنه أوحي إليه بشرع ، وأنه على شريعة من ربه عليه الصلاة والسلام ، وكانت ذريته على شريعته وعلى توحيد الله ، والإخلاص له ، ثم بعد ذلك بعشرة قرون أو ما شاء الله من ذلك ، وقع الشرك في قوم نوح في ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، كما تقدم .

وقد جاء في الآثار المشهورة عن ابن عباس وغيره :

أن ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا كانوا رجالا صالحين ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم أنصابا ، وسموها بأسمائهم ففعلوا ولم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت من دون الله ﷻ أي لما ذهب العلم وقل العلماء المتبصرون جاء الشيطان إلى الناس فقال لهم : إن هذه الأصنام إنما صورت لأنا كانت تنفع ، وكانت تدعى ويستغاث با ، ويستسقى با ، فوقع الشرك في الناس بسبب ذلك .

وبذا يعلم : أن نوحا عليه الصلاة والسلام أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، بعد وقوع الشرك فيها ، كما جاء في الصحيحين وغيرهما : « . . من أن أهل الموقف يوم القيامة يقولون : يا نوح ، أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، فاشفع لنا إلى

(١) سورة يونس ، الآية ١٩ .

ربه . . . . ﴾ [1] الحديث .

أما آدم فقد ثبتت نبوته قبل ذلك عليه الصلاة والسلام بدلائل أخرى . وجاء في حديث أبي ذر عن أبي حاتم بن حبان وغيره أنه سأل النبي ﷺ عن الرسل وعن الأنبياء فقال النبي ﷺ ﴿ الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفا ، والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر ﴾ [2] وفي رواية أبي أمامة : ﴿ ثلاثمائة وخمسة عشر ﴾ . ولكنهما حديثان ضعيفان عند أهل العلم ، ولهما شواهد ولكنها ضعيفة أيضا ، كما ذكرنا آنفا ، وفي بعضها أنه قال عليه الصلاة والسلام : ﴿ ألف نبي فأكثر ﴾ ، وفي بعضها : ﴿ أن الأنبياء ثلاثة آلاف ﴾ ، وجميع الأحاديث في هذا الباب ضعيفة ، بل عد ابن الجوزي حديث أبي ذر من الموضوعات ، والمقصود : أنه ليس في عدد الأنبياء والرسل خبر يعتمد عليه ، فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى ، لكنهم جم غفير ، قص الله علينا أخبار بعضهم ولم يقص علينا أخبار البعض الآخر لحكمته البالغة جل وعلا ، والفائدة العظمى : أن نعرف أنهم جميعهم دعوا إلى توحيد الله ، والإخلاص له سبحانه وتعالى ، وأنهم دعوا أممهم إلى ذلك فمنهم من قبل هذه الدعوة ، ومنهم من ردها ، ومنهم من لم يتبعه إلا القليل ، ومنهم من لم يجبه أحد بالكلية ، كما أخبر بذلك نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

ونبينا وهو خاتمهم وأفضلهم عليه الصلاة والسلام قد عُلِم ما جرى له مع قومه من الخصومة وال اع في مكة المكرمة " وقد أوذي كثيرا هو وأصحابه حتى أجمعوا على قتله " فأنجاه الله من بين أظهرهم ، وفي المدينة جرى ما جرى من الغزوات والجهاد العظيم حتى نصره الله وأيده عليهم عليه الصلاة والسلام .

وبذلك يتضح للجميع : أن دعوة الرسل جميعهم : هي دعوة إلى توحيد الله والإخلاص له ، وأن الأنبياء جميعا ، والمرسلين كلهم دعوا إلى توحيد الله والإخلاص له ،

---

(١) البخاري تفسير القرآن (٤٤٣٥) ، مسلم الإيمان (١٩٤) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٤) .
(٢) أحمد (٢٦٦/٥) .

والإيمان بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأنه سبحانه واحد في ربوبيته ، واحد في أسمائه وصفاته ، واحد في استحقاقه العبادة دون كل ما سواه جل وعلا ،

فلا يستحقها غيره لا نبي ولا ملك ولا صالح ولا غيرهم من المخلوقات ، فالعبادة حق الله جل وعلا ، ولها خلق الخلق سبحانه وتعالى ، وبها أرسل الرسل ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [2] فلعبادة الله وتوحيده خلقت الخليقة ، وأرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، كما قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [3] وقال سبحانه : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [4] .

وقد أبان الله سبحانه في كتابه العزيز من آياته ومخلوقاته ما يدل على قدرته العظيمة ، وألوهيته وربوبيته ، وأنه المستحق للعبادة سبحانه وتعالى .

ومن تدبر كتاب الله ومخلوقاته وجد من الآيات المتلوة والحسية والأخبار المنقولة - ما يدل على أنه سبحانه المستحق للعبادة جل وعلا ، وأن الرسل كلهم بلغوا ذلك ودعوا إليه ، وأن الشرك الذي وقع في قوم نوح لم يزل في الناس إلى يومنا هذا ، فلم يزل في الناس من يعبد الأصنام والأوثان ، ويغلو في الصالحين والأنبياء ، يعبدهم مع الله ، كما هو معلوم عند كل من نظر في أخبار العالم من عهد نوح إلى يومنا هذا .

وبما ذكرنا من كتاب الله عز وجل ومن كلام رسوله محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، ومن واقع العالم يتضح أن التوحيد أقسام ، وقد عرف ذلك أهل العلم

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .
(٢) سورة النحل ، الآية ٣٦ .
(٣) سورة هود ، الآيتان ١ ، ٢ .
(٤) سورة إبراهيم ، الآية ٥٢ .

بالاستقراء لكتاب الله ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

فهو أقسام ثلاثة :

الأول : توحيد الربوبية : وهو الإيمان بأن الله ﷻ واحد في أفعاله ، وخلقه وتدبيره لعباده ، وأنه المتصرف في عباده كما شاء سبحانه وتعالى ، بعلمه وقدرته جل وعلا .

والثاني : توحيد الأسماء والصفات ، وأنه سبحانه وتعالى موصوف بالأسماء الحسنى والصفات العلا ، وأنه كامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله جل وعلا ، وأنه لا شبيه له ، ولا نظير له ، ولا ند له عز وجل .

الثالث : توحيد العبادة ، وأنه يستحق سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له ، دون ما سواه جل وعلا .

وإن شئت قلت : توحيد الله سبحانه وتعالى : هو الإيمان بأنه رب الجميع وخالق الجميع ، ورازق الجميع ، وأنه لا شريك له في جميع أفعاله سبحانه وتعالى ، لا شريك له في خلقه ورزقه للعباد ، لا شريك له في تدبير الأمور ، وهو المالك لكل شيء جل وعلا ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) فهو المالك لكل شيء ، والمتصرف في كل شيء جل وعلا ، له الأمر كله ، وله الخلق كله ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) وهو الموصوف بصفات الكمال ، والمسمى بالأسماء الحسنى ، فلا شبيه له من خلقه في شيء ، بل هو الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو المستحق أن يعبد ويخص بالعبادة من الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والصلاة والصوم والذبح والنذر وغير ذلك .

هذا كله داخل في مسمى التوحيد ، توحيد الله سبحانه وتعالى ، توحيد الأنبياء

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١٢٠ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٥٤ .

والمرسلين ، وهو التوحيد الذي جاء به خاتمهم وسيدهم وإمامهم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

ويمكن أن نأتي بعبارة أخرى فنقول : توحيد الله الذي جاءت به الرسل جميعهم ينقسم إلى قسمين :

الأول : توحيد في **المعرفة والإثبات ،** فمعناه : الإيمان بأسماء الله وصفاته وذاته جل وعلا ، وخلقه للعباد ورزقه لهم ، وتدبيره لشئونم سبحانه وتعالى .

هذا هو التوحيد في المعرفة والإثبات : أن تؤمن وتصدق بأن الله سبحانه واحد في ربوبيته ، واحد في أسمائه وصفاته وتدبيره لعباده " ، وهو الخالق لهم والرازق لهم والموصوف بصفات الكمال الم ه عن النقص والعيب لا شريك له في ذلك " ولا شبيه له ، ولا ند له جل وعلا .

الثاني : توحيد القصد والطلب : وهو :

إفراد الله سبحانه في قصدك وطلبك وصلاتك وصومك ، وسائر عباداتك ، لا تقصد با إلا وجهه جل وعلا ، وهكذا صدقاتك ، وسائر أعمالك التي تتقرب با ، لا تقصد با إلا وجهه جل وعلا ، فلا تدعو إلا إياه ،

ولا تنذر إلا له ، ولا تتقرب بأنواع القربات إلا له سبحانه ، ولا تطلب شفاء المرضى والنصر على الأعداء إلا منه ﷻ توحده في كل ذلك .

فهذه أنواع التوحيد ، لك أن تعبر عنها بنوعين ، ولك أن تعبر عنها بثلاثة أنواع ، ولك أن تعبر عنها بنوع واحد كما تقدم فيما ذكرنا آنفا . ولا مشاحة في الاصطلاح والتعبير ، وإنما المقصود :

أن نعرف ما هو التوحيد الذي بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، ووقعت فيه الخصومة بين الرسل وأممهم ، وهو توحيد العبادة .

أما كونه سبحانه رب الجميع وخالق الخلق ورازقهم ، وأنه كامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأنه لا شبيه له ، ولا ند له " ولا مثيل له ، فهذا لم يقع فيه الخلاف بين

الرسل والأمم ، بل جميع المشركين من قريش وغيرهم مقرون به ، وما وقع من إنكار فرعون

وادعائه الربوبية فمكابرة ، يعلم في نفسه أنه مبطل ، كما قال له موسى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ (1) وقال سبحانه فيه وفي أمثاله : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ (2) وقال تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (3)
وهكذا ما ادعته الثانوية من إلهية النور والظلمة ، فمكابرة أيضا ، وهم مع ذلك لم يقولوا : إنما متساويان ، فليس في العالم من يقول : إن هناك إلهين متساويين في التصرف والتدبير ، وأما إنكار الملاحدة لرب العالمين كليا ، وإنكارهم للآخرة ، فليس هذا بمستغرب من أعداء الله لفساد عقولهم بسبب استيلاء الشياطين عليهم حتى اجتالتهم عن فطرة الله التي فطر عليها الناس .

وهؤلاء الملاحدة ، وإن أنكروا بألسنتهم فقلوبم تقر بذلك ، كما أقر بذلك الجمادات ، وكل شيء ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (4) وقال جل وعلا : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾ (5)
والمقصود : أن من أنكر رب العالمين من الكفرة الرمين ، فهو في الحقيقة مكابر لفطرته

---

(1) سورة الإسراء ، الآية ١٠٢ .
(2) سورة النمل ، الآية ١٤ .
(3) سورة الأنعام ، الآية ٣٣ .
(4) سورة الإسراء ، الآية ٤٤ .
(5) سورة الحج ، الآية ١٨ .

وعقله ، فإن الفطرة والعقل يشهدان بوجود رب متصرف في الكون ، مدبر للعباد ، لا شبيه له ، ولا شريك له ، ولا ند له سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، ولهذا قلنا : إن المشركين قد أقروا بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات ، ولم ينكروا ذلك لأنم يعلمون أن الله جل وعلا خالق العباد ورازقهم ، ومدبر أمورهم ، م ل المطر ، المحيي المميت ، الرزاق للعباد وغير ذلك ، كما تقدم بيانه .

فالواجب عليك : يا عبد الله - إذا عرفت ما تقدم - أن تبذل وسعك في بيان هذا الأصل الأصيل ، ونشره بين الناس ، وإيضاحه للخلق ، حتى يعلمه من جهله ، وحتى يعبد الله وحده ، من أشرك به وخالف أمره ، وحتى تكون بذلك قد اتبعت الرسل ، وسرت على منهاجهم في الدعوة إلى الله ، أداءً للأمانة التي حملتها فيكون لك مثل أجور من هداه الله على يديك إلى يوم القيامة ، كما قال الله جل وعلا : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [1] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [2] وقال جل وعلا : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [3] وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » [4] ، رواه مسلم في صحيحه ، وقال لعلي رضي الله عنه لما بعثه إلى خيبر : « فو الله لئن يهدي الله بك رجلا وحدا خير لكم من حمر

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٣ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٨ .
(٣) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .
(٤) مسلم الإمارة (١٨٩٣) ، الترمذي العلم (٢٦٧١) ، أبو داود الأدب (٥١٢٩) ، أحمد (١٢٠/٤) .

النعم ﷺ [1] متفق على صحته .

هذا وأسأل الله ﷻ أن يوفقنا جميعا للفقه في دينه والاستقامة على ما يرضيه ، وأن يعيذنا جميعا من أسباب غضبه ، ومن مضلات الفتن ، كما أسأله سبحانه أن ينصر دينه ويعلي كلمته ، وأن يصلح أحوال المسلمين ويولي عليهم خيارهم ، إنه سبحانه وتعالى جواد كريم . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

---

(١) البخاري الجهاد والسير (٢٨٤٧) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٦) ، أبو داود العلم (٣٦٦١) ، أحمد (٣٣٣/٥) .

توضيح معنى الشرك بالله

السؤال : ما هو الشرك ، وما تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [(١)] الآية ؟

الجواب : الشرك على اسمه : هو تشريك غير الله مع الله في العبادة ، كأن يدعو الأصنام أو غيرها ، يستغيث بها ، أو ينذر لها ، أو يصلي لها ، أو يصوم لها ، أو يذبح لها ، ومثل : أن يذبح للبدوي ، أو للعيدروس ، أو يصلي لفلان ، أو يطلب المدد من الرسول ﷺ أو من عبد القادر ، أو من العيدروس في اليمن ، أو غيرهم من الأموات والغائبين فهذا كله يسمى شركا ، وهكذا إذا دعا الكواكب ، أو الجن أو استغاث بهم ، أو طلبهم المدد ، أو ما أشبه ذلك ، فإذا فعل شيئا من هذه العبادات مع الجمادات ، أو مع الأموات ، أو الغائبين صار هذا شركا بالله ﷻ قال الله جل وعلا : ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ ﴾ [(٢)] وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝ ﴾ [(٣)] ومن الشرك : أن يعبد غير الله عبادةً كاملة ، فإنه يسمى : شركا ، ويسمى : كفرا ، فمن أعرض عن الله بالكلية وجعل عبادته لغير الله كالأشجار ، أو الأحجار ، أو الأصنام ، أو الجن ، أو بعض الأموات من الذين يسمونهم بالأولياء يعبدهم أو يصلي لهم أو يصوم لهم وينسى الله بالكلية فهذا أعظم كفرا وأشد شركا ، نسأل الله العافية ، وهكذا من ينكر وجود الله ، ويقول : ليس هناك إله والحياة مادة ؛ كالشيوعيين ، والملاحدة المنكرين لوجود الله ، هؤلاء أكفر الناس وأضلهم وأعظمهم شركا وضلالا نسأل الله العافية ، والمقصود : أن أهل هذه الاعتقادات وأشباهها كلها تسمى : شركا ، وتسمى : كفرا بالله ﷻ وقد يغلط بعض الناس لجهله

(١) سورة المائدة ، الآية ٣٥ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٨٨ .
(٣) سورة الزمر ، الآية ٦٥ .

فيسمي دعوة الأموات والاستغاثة بم : وسيلة ، ويظنها جائزة ، وهذا غلط عظيم ؛ لأن هذا العمل من أعظم الشرك بالله ، وإن سماه بعض الجهلة أو المشركين : وسيلة ، وهو دين المشركين الذي ذمهم الله عليه وعابم به ، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لإنكاره والتحذير منه ، وأما الوسيلة المذكورة في قول الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [(١)] فالمراد با : التقرب إليه سبحانه بطاعته ، وهذا هو معناها عند أهل العلم جميعا ، فالصلاة قربة إلى الله فهي وسيلة ، والذبح لله وسيلة ؛ كالأضاحي ، والهدي ، والصوم وسيلة ، والصدقات وسيلة ، وذكر الله وقراءة القرآن وسيلة ، وهذا هو معنى قوله جل وعلا ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾ [(٢)] يعني : ابتغوا القربة إليه بطاعته ، هكذا قال ابن كثير وابن جرير والبغوي وغيرهم من أئمة التفسير ، والمعنى : التمسوا القربة إليه بطاعته واطلبوها أينما كنتم مما شرع الله لكم ، من صلاة وصوم وصدقات وغير ذلك ، وهكذا قوله في الآية الأخرى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ ﴾ [(٣)] هكذا الرسل وأتباعهم يتقربون إلى الله بالوسائل التي شرعها من جهاد وصوم وصلاة وذكر وقراءة قرآن إلى غير ذلك من وجوه الوسيلة ، أما ظن بعض الناس أن الوسيلة هي التعلق بالأموات والاستغاثة بالأولياء فهذا ظن باطل ، وهذا اعتقاد المشركين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ [(٤)] فرد عليهم سبحانه بقوله : ﴿ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ ﴾ [(٥)] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٣٥ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٣٥ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٥٧ .
(٤) سورة يونس ، الآية ١٨ .
(٥) سورة يونس ، الآية ١٨ .

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

الفهرس